التّماسك البنيويّ للخطاب الإلهيّ في سورة النّازعات

The structural coherence of the divine discourse in Surat Al-Nazi'at

فاطمة الزّهراء سعيداني *

أ.د/ قاسم الشّيخ بالحاج ♣

تاريخ الإرسال: 2020/08/11	تاريخ القبول: 2020 / 11 / 11	تاريخ النشر: 30 / 03 / 2021

الملخّص:

تتناول هذه الدّراسة بنية الخطاب الإلهيّ في سورة النّازعات، من خلال استصحاب خاصّيّة التّماسك البنيويّ في التّحليل، والتي تقوم بشدّ وشائج الخطاب في مختلف مستوياته. حيث استهدفت دراسة البنى الجزئيّة المكوِّنة للبنية الكلّيّة للسّورة، والمتمثّلة في كلٍّ من البنية النّصّيّة والخطابيّة واللّغوية، بغرض إبراز دورها في تحقيق تماسك بنية السّورة على مستوى نظمها وعلى مستوى سياقها، ممّا يهّئ الفرصة لرسالتها لبلوغ أقصى درجات التّأثير على المخاطَب.

الكلمات المفتاحيّة: النّازعات، الخطاب، التّماسك، السّياق، الدّلالة.

Abstract:

This study deals with the structure of the divine discourse in Surat Al-Nazi'at, that accompany the property of structural cohesion in analysis, which pulls the bonds of discourse across its various levels. As it targeted the study of the partial structures that make up the overall structure of the Surah, which is represented in both the textual, rhetorical, and linguistic structure, with the aim of highlighting its role in achieving the coherence of the structure of the Surah at the level of its systems and the level of its context. This cohesion created an opportunity for its mission to reach the maximum degree of influence on the addressees.

المؤلف المرسل: فاطمة الزّهراء سعيداني zawraamaya@gmail.com

* كلّيّة العلوم الإسلاميّة- جامعة الجزائر 1 zawraamaya@gmail.com

♣ كلّيّة العلوم الإسلاميّة- جامعة الجزائر 1 chekhebelhadje@yahoo.fr

***Key words**: Al- Nazi'at; the discourse; cohesion; context; indication .*

*** *** ***

مقدّمة:

الحمد لله تعالى فوق حمد الحامدين، والصّلاة والسّلام الأتمّان الأكملان على سيّد الخلق أجمعين، محمّدٍ نبيّنا وآله الطّاهرين، وصحابته الميامين، وتابعيهم بإحسانٍ إلى يوم الدِّين، وبعد:

فتتنوّع المضامين المعرفيّة في كتاب الله المجيد، لتشكِّل في جملتها التّصوّر القرآنيّ للحياة، وتؤسِّس نظرة متميّزة ومتفرّدة للحقيقة، من غير تشتيتٍ للفكر أو تمزيقٍ للكينونة الإنسانيّة. وعلى الرّغم من هذا التّنوّع فالخطاب القرآنيّ باعتباره خطابا إلهيّا معجزا يتّسم بكونه كتلة بنيويّة واحدة متماسكة الأجزاء، تتشابك مع وعي المخاطَبين لتهيئتهم لفهم مضمونه وبلاغات رسالته؛ وإزاء هذا التّماسك البنيويّ، فإنّ قراءة هذا الخطاب لن تكون مثمرة إلاّ إذا تمّت ضمن رؤية شموليّة، تتناول كلّ جزء من الأجزاء المشكّلة لبنيته بالتّحليل منفردا، ثمّ تحليله بعد ذلك ضمن ناظمه الشّموليّ(1). وبالتّالي فستكون هذه القراءة ذات صبغة تفكيكيّة في المنطلق، هدفها إيجاد وشائج داخليّة ضمن الخطاب نفسه، تسمح بتدبّره بعد ذلك وفق منحى تركيبيّ تأليفيّ، يتيح فرصة ثمينة لاستنباط دلالاته ومقاصده وبلاغات رسالته.

وانطلاقا من هذا الإطار المنهجيّ فإنّ هذه الدّراسة تستهدف تحليل بنية الخطاب الإلهيّ في سورة النّازعات، من خلال وقفات تدبّريّة في البنى الجزئيّة المكوِّنة لها ضمن سياقها الخاصّ ثمّ سياقها الكلّيّ، بغرض إبراز مظاهر التّماسك البنيويّ في السّورة، والذي يتضامّ فيه ما هو إنسانيٌّ مع ما هو كونيٌّ، وتجتمع في ظلِّه الدّلالتان العقليّة والوجدانيّة جنبا إلى جنب، الأمر الذي يجعل هذه الدّراسة خطوة نوعيّة لفهم بنية الخطاب في السّورة في كلّيّتها، واستيعاب رسالتها وقيمها.

وتكمن أهمّية المقاربة التّحليليّة لهذه الدّراسة في كونها تحاول النّهوض برؤية تدبّريّة لكتاب الله المجيد، مستندة إلى النّاظم الشّموليّ لهذا الخطاب المعجز مبنى ومعنى. فهي تندرج ضمن المحاولات التي تسعى إلى تأسيس درس تفسيريّ رائد ومتميّز، يتحقّق في ظلِّه الحضور الفعليّ للعقل الإنسانيّ، من خلال اختبار قدرته على التّفاعل مع نسق الخطاب الإلهيّ، ليشكِّلا معا دلالة إيمانيّة متجدِّدة لمفهوم تدبّر كلام الله عزّ وجلّ، ترتقي

بالإنسان إلى المصافِّ الإيمانيّة ثمّ الكونيّة المكافئة لبلاغات رسالة الخطاب الإلهيّ وعالميّتها.

ولتحقيق الأهداف المتوخّاة من هذه الدّراسة فقد تمّ تقسيمها إلى مقدِّمةٍ وثلاثة مباحث وخاتمةٍ؛ حيث عُنِي المبحث الأوّل بتحليل البنية النّصّيّة لسورة النّازعات، من خلال التّطرّق لتسميتها وموضوعاتها ومقاصدها وسياقاتها، وكذا الثّنائيّات المكوِّنة لمضمونها. وعُنِي المبحث الثّاني بالبنية الخطابيّة للسّورة، من خلال تحليل مساريْ الخطاب الإقناعيّ والخطاب القصصيّ فيها. بينما عُنِي المبحث الثّالث بالبنية اللّغويّة للخطاب في السّورة، من خلال تحليل نماذج من أساليبها وتراكيبها وصيغها، وإبراز الجانب المتعلّق بالشّحنات العاطفيّة لبعض ألفاظها، كلّ ذلك بغرض إبراز مكمن التّماسك على مستوى كلّ بنية من هذه البنى الثّلاث، ثمّ على مستوى بنية الخطاب في السّورة ككلّ. أمّا الخاتمة فقد خصِّصت لبيان أهمّ نتائج الدّراسة، وتحصيل ثمار الوقفات التّدبّريّة في السّورة.

1. تماسك البنية النّصّيّة للخطاب الإلهيّ في سورة النّازعات:

سورة النّازعات مكّيّة باتفاق، عدد آياتها ستٌّ وأربعون آيةً حسب العدِّ الكوفيِّ، وخمسٌ وأربعون آيةً فيما سواه[2]، وهي السّورة التّاسعة والسّبعون في ترتيب المصحف، وتقع بين سورتيّ النّبأ وعبس. وبوضع السّورة في السّياق العامّ للمرحلة المكّيّة، نجد أنّ موضوع الخطاب الإلهيّ فيها قد تناول قضيّتيّ التّوحيد والبعث، فهما محور السّورة وجوهر التّماسك فيها. كما نجد أنّ مقاصد السّورة قد تمحورت حول تثبيت الدّلائل على وحدانيّة الله تعالى وإحاطة علمه وشمول قدرته، وإذعان كلّ الكائنات لألوهيّته، ودحض شبهة إنكار البعث. ومن خلال هذه المقاصد توجّه الخطاب الإلهيّ ناحية الإدراك البشريّ بسياقات خطابيّة متنوّعة، تستنهض الكينونة وتستجيش الوجدان، لاستبطان شواهد الواحديّة الإلهيّة وجودا واقتضاء[3].

ولقد تناولت السّورة موضوعها الرئيسيّ عبر ثلاثة محاور جزئيّة، أوّلها تصوير مشاهد مقتضبة من يوم القيامة وأهواله، وثانيها ذكر مقطع من قصّة سيّدنا موسى عليه السّلام وفرعون، وثالثها سوق الدّلائل الكونيّة الشّاهدة على وحدانيّة الخالق سبحانه وتعالى وعلى وقوع البعث والمعاد. وقد ارتبطت هذه المحاور الجزئيّة بالموضوع

الرئيسيّ للسّورة من خلال أنساق تعبيريّة متنوّعة، تشكّل في مجملها صورة خطابيّة كلّيّة متماسكة، تشدّ إليها فكر المخاطَب ووجدانه لتدبّر دلائل الوحدانيّة والبعث.

ويمكن تحديد مظاهر التّماسك النّصّيّ في بنية سورة النّازعات من خلال مظهرين اثنين هما:

1.1. التّماسك على مستوى نظم السّورة:

يمثِّل عنوان أي نصّ من النّصوص علامة دالّة على محتواه، تتجلّى من خلاله جملة الدّلالات المحوريّة في النّصّ، فالعنوان يمكِّن من استشفاف أبعاد المحتوى المعنون وتمييز ملامحه العامّة.

وتأتي تسمية السّورة بـ "النّازعات" بالنّظر إلى الموضوع الذي افتتحت به، وهو القَسَم بالملائكة الكرام؛ فقد أجمع المفسِّرون على أنّ المقصود بقول الله تعالى ذكره: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا (1) وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا (2) وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا (3) فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا (4) فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ (النّازعات: 1- 5) هم الملائكة، ولكنّهم اختلفوا في كون الأوصاف الخمسة المذكورة هي صفاتٌ لموصوفٍ واحدٍ، أو أنّ كلّ صفةٍ منها مختصّةٌ بموصوف معيّن[4].

وبوضع تسمية السّورة في إطار النّاظم الشّموليّ للخطاب فيها، يتبيّن وجه التّماسك بين العنوان والمحتوى المعنون؛ فقد اشتملت على تفصيل القول في قضايا غيبيّةٍ عظيمةٍ، ابتداء بذكر أوصاف ملائكة الرّحمن، ثمّ الحديث عن البعث والجزاء وأهوال يوم القيامة، ثمّ الانتقال إلى بيان الدّلائل الكونيّة الباهرة على الوحدانيّة والمخلوقيّة، لتختتم بعدها بالحديث عن موعد السّاعة. وبهذا يكون اسم السّورة متوافقا مع عظم القضايا التي تناولتها، والتي لا يمكن لعلم الإنسان المحدود بالزّمان والمكان أن يحيط بها وبكنهها.

ولا يقتصر تماسك البنيّة النّصّيّة للسّورة على وجه تسميتها، بل يتعدّاه إلى تماسك وحداتها النّصّيّة (أي موضوعاتها) وفق ثنائيّات متراتبة تراتباً معجزاً؛ حيث تتماسك الوحدة النّصّيّة لوصف يوم القيامة من خلال ثنائيّة مبهرة، للدّلالة على عظمة أهواله، حيث ورد أحد عناصر هذه الثّنائيّة مجملاً في قول الله تبارك اسمه: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى﴾ (النّازعات: 34)، والطَّمُّ وصفٌ لكلِّ داهيةٍ عظيمةٍ[5]. بينما ورد

عنصرها الثّاني مفصّلاً في قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (6) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ (7) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (8) أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ﴾ (النّازعات: 6- 9).

وتتضامّ الوحدة النّصّيّة للمقطع القصصيّ في السّورة مع الوحدة النّصّيّة لمقطع الجزاء فيها من خلال ثنائيّة معجزة، للدّلالة على مآلات سعي الإنسان في دنياه؛ حيث ورد أحد عناصر هذه الثّنائيّة مرتبطاً بوصف حال فرعون، في قول الله سبحانه وتعالى: ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ (النّازعات: 17)، وقوله سبحانه أيضا: ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَى (21) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى (22) فَحَشَرَ فَنَادَى (23) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى (24) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى﴾ (النّازعات: 21- 25). بينما ارتبط عنصرها الثّاني بموقف الجزاء يوم القيامة، في قول الحقّ تبارك وتعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى (37) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (38) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (39) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ (النّازعات: 37- 41). ثمّ تكرّر مقصد الجمع بين العنصرين مرّتين اثنتين، بارتباطه في المرّة الأولى بسياق القصّة، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾ (النّازعات: 26)، ثمّ ارتباطه في المرّة الثّانية بسياق يوم القيامة، في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا﴾ (النّازعات: 45)، فتتبيّن مناسبة سوق المقطع القصصيّ هنا بذكر ما يناسب المقام لغاية الاعتبار في الحال والمآل[6].

وفي ثنائيّةٍ ثالثةٍ يلتقي سياق شبهة إنكار البعث مع سياق دليل دحض الشّبهة، للدّلالة على أنّ التّصادم الحاصل في فكر منكريّ البعث بين مظهر الفناء ومظهر إعادة الإحياء إنّما هو ناشئٌ من استبعادهم للاعتبار بمظاهر الخلق في الاستدلال على ما ينكرونه. قال الله تعالى: ﴿يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ (10) أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً (11) قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ (النّازعات: 10- 12)، وقال سبحانه أيضا: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (27) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (28) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (29) وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (30) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (31) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ (النّازعات: 27- 32).

وهكذا تجتمع المعاني المتجلّية عن هذه الثّنائيّات الثّلاث: ثنائيّة وصف يوم القيامة، وثنائيّة المقطع القصصيّ ومقطع الجزاء، وثنائيّة شبهة إنكار البعث ودليل دحضها، لتضفي على البنية النّصّيّة للسّورة تماسكاً دلاليًّا متميّزاً، يخدم موضوع

السّورة ومقاصدها. كما تنساب هذه الثّنائيّات انسياباً حيويًّا، من خلال سياقاتها التّفكيكيّة تارة ومن خلال سياقاتها التّركيبيّة تارة أخرى، لتقويّ في جملتها بنية الحجاج في السّورة، وتزيد من ارتباط المخاطَب بمضمون الخطاب فيها.

1.2 التّماسك على مستوى سياق السّورة:

تشترك سورة النّازعات مع غيرها من السّور المكّيّة في العناية بعقيدة التّوحيد والبعث، وربط الكينونة الإنسانيّة بمعانيهما باعتبارهما قضيّتيّ وجود ومصير. كما تشترك مع سور المفصّل المكّيّة على نحوٍ خاصٍ في الأسلوب الزّاجر، والفواصل القصيرة المتواترة التي تشدّ إليها الأسماع والقلوب لتدبّر كلام الحكيم الخبير. وقد شكّلت هذه الملامح جوهر التّماسك في سياق سورة النّازعات، بين السّورة التي تسبقها وهي النّبأ، والسّورة التي تليها وهي عبس.

يتماسك النّظم القرآنيّ العامّ لسورة النّازعات مع سورة النّبأ من حيث وجه المناسبة في الافتتاح بذكر أوصاف الملائكة؛ حيث اختتمت هذه الأخيرة بالحديث عن ملائكة الرّحمن، وما يتّصفون به من الطّاعة المطلقة لله تعالى. يقول الحقّ جلّ وعلا: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلاَئِكَةُ صَفًّا لاَ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ (النّبأ: 38). فتلتها فاتحة سورة النّازعات بالاشتمال على أوصافهم التي تدلّ على الأعمال الموكلة إليهم والتي لا يجاوزونها، فهي من مقتضيات عبوديّتهم لله تعالى[7].

ومن ناحية أخرى يمثِّل القَسَم في سورة النّازعات امتدادا معنويًّا وسياقيًّا لخاتمة سورة النّبأ؛ فقد ختمت هذه الأخيرة بتشديد الحقّ تبارك وتعالى النُّذُرَ للنّاس، من خلال تصوير حال الكافر حين يعرض عليه سعيه الدّنيويّ، في مشهدٍ شديد الوطأة: ﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا (39) إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ (النّبأ: 39، 40). فاستدعى هول هذا المشهد تأكيده بسياق يتناغم معه، فجيئ بالقَسَم في مطلع سورة النّازعات، متضمنًّا قوّةً أسلوبيّةً بسبب عظم المُقسَم به وحذف جواب القَسَم[8]. ثمّ أُلحِق هذا القَسَم بذكر مشاهد مهولة ليوم القيامة وأحوال النّاس فيه: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (6) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ (7) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (8) أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ﴾ (النّازعات: 6- 9)، فالتقى

بذلك المختتم في السّورة السّابقة (النّبأ) مع المفتتح في السّورة اللاّحقة (النّازعات) على وقع قوةٍ سياقيّةٍ وأسلوبيّةٍ لا تضاهى.

وبالمضيّ قدما في تدبّر سياق سورتيّ النّازعات والنّبأ، يظهر وجه آخر لتماسك نظمهما في بعض الوحدات النّصّيّة؛ حيث تشتركان معاً في دلالة المقطع الكونيّ، مع اختصاص سورة النّازعات بالمقارنة بين خلق الإنسان وخلق الكون: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (27) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (28) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (29) وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (30) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (31) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ (النّازعات: 27-32)، واختصاص سورة النّبأ بالدّلالة على وجه تسخير الكون لصالح الإنسان: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا (6) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (7) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (8) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (9) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (10) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (11) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (12) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (13) وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (14) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (15) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾ (النّبأ: 6- 16). فذُكِر الإنسان في مقدّمة الخطاب في آيات سورة النّازعات ليتبيّن وجه المقارنة بينه وبين مظاهر الخلق، بينما ذُكِر في قلب الخطاب في آيات سورة النّبأ ليتبيّن وجه الامتنان والتّفضّل عليه في تسخير عناصر الكون لصالحه.

وفي السّياق اللاّحق لسورة النّازعات، يبدو التّماسك بينها وبين سورة عبس جليًّا من خلال اشتراكهما في دلالة بعض الوحدات النّصّيّة؛ فمن ذلك اجتماعهما في دلالة المختتم مع المطلع وكذا المقطع القصصيّ، من حيث التّنويه بمقصد الهداية؛ فقد ورد مطلع سورة عبس في قول الله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (3) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى﴾ (عبس: 3، 4) ، وقوله أيضا: ﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى (8) وَهُوَ يَخْشَى﴾ (عبس: 8، 9)، شارحا لخاتمة سورة النّازعات، في قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا﴾ (النّازعات: 45)، فالمقصد الأسمى من رسالة الحقّ هو تزكية القابل للخشية ترهيباً وترغيباً. وزاد المقطع القصصيّ في السّورة هذا المعنى تأكيدا، حيث قال الله مخاطبا نبيّه موسى عليه السلام: ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (17) فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى (18) وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾ (النّازعات: 17- 19)[9].

وتجتمع السّورتان كذلك على إيقاعات المشهد الكونيّ؛ حيث اختصّت سورة النّازعات بذكر دلائل الخلق في كلّيّتها: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (27) رَفَعَ

سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (28) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (29) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (30) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (31) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ (النّازعات: 27- 32)، واختصّت سورة عبس بذكر دلائل الخلق في تفاصيلها: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (24) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (25) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (26) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (27) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (28) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (29) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (30) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ (عبس: 24- 31)، بينما كان المقصد من ذكر هذه الدّلائل واحدا في السّورتين، وهو امتنان الخالق سبحانه وتعالى على الإنسان بما أنعم عليه من تسخير الكون في قوله تعالى: ﴿مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ (النّازعات: 33)، وقوله: ﴿مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ (عبس: 32).

كما تجتمع السّورتان من وجهٍ ثالثٍ في المشهد التّصويريّ ليوم القيامة؛ حيث اختصّت سورة النّازعات بوصف الطَّمِّ، وهو وصفٌ لكلّ داهيةٍ عظيمةٍ، تجمع شتات كلِّ شيئ. قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى (34) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى﴾ (النّازعات: 34، 35)، بينما اختصّت سورة عبس بوصف الصَّخِّ[10]، وهو شدّة الصّوت المؤذن باشتغال كلّ إنسان بما سيكون عليه حاله. قال الحقّ تبارك اسمه: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ (33) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (34) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (35) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (36) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ (عبس: 33- 37). وجاء قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى﴾ (النّازعات: 35) بمثابة البيان لقوله: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ (عبس: 37)؛ فكلّ امرئٍ يوم القيامة سيكون مشتغلا باستذكار ما أفضى إليه سعيه في الدّنيا.

وهكذا تتضامّ السّور الثّلاث: النّبأ والنّازعات وعبس في إطار ناظمٍ شموليٍّ، تلتقي من خلاله سياقاتها ودلالاتها عند مقصد تثبيت الدّلائل على وحدانيّة الله تعالى وألوهيّته وقدرته ودحض شبهة إنكار البعث، ممّا يضفي على البنية النّصّيّة لسورة النّازعات تماسكاً متميّزا، يخدم أهدافها ومقاصدها التي اختصّت بها من دون السّورتين الأخريين.

2. تماسك البنية الخطابيّة لسورة النّازعات:

يؤسّس خطاب القرآن الكريم سياق رسالته الهدائيّة وفق منهجٍ خاصٍّ به، بحيث يتماسك هذا السّياق ضمن إطار موضوعه ثمّ ضمن إطار السّورة التي يرد فيها، ليشكّل مع مختلف أنماط الخطاب في هذه الرّسالة وحدةً متماسكةً وبنيةً خطابيّةً فاعلةً. كما

يعتبر منهج هذا الخطاب من خلال مداخله واتّجاهاته المحكّ الذي يُظهِر تفرّد البنية المعرفيّة للخطاب الإلهيّ، والمستندة أساسا إلى مضمون الخطاب والمجال الذي يعرض فيه هذا المضمون وكذا نفسيّة المخاطَب.

وتتشكّل البنية الخطابيّة في سورة النّازعات عبر مسارين اثنين، هما:

2.1 الخطاب الإقناعيّ:

وهو المسار الذي يسجِّل حضوره المهيمن في السّور المكّيّة، نظرا لعنايتها بتقرير دلائل الوحدانيّة والألوهيّة والخالقيّة وإثبات المعاد والجزاء. ذلك أنّ الخطاب الإقناعيّ يقوم على أساس مواجهة المخاطَبين بالحجّة وفقا لطبيعة عقولهم، ثمّ اختيار أحسنِ السُّبُل لمحاورتهم والإصغاء إليهم، ثمّ محاولة حِيازةِ انسجامهم الإيجابيّ مع الطَّرح المقدّمِ، بغية دفعهم إلى فحص منطلقاتهم في الاعتقاد، وإعادة تشكيل أدلّة الوحدانيّة والألوهيّة في أذهانهم.

ولقد ارتكز سياق ورود الخطاب الإقناعيّ في سورة النّازعات على المدخلين الكونيّ والإنسانيّ في توليفةٍ متماسكةٍ، تُحِيل المخاطَب إلى العودة إلى ذاته، لاستبطان مظاهر الضّلال والجهل في داخله، واللّذيْن يعيقان سطوع نور الفطرة في كينونته. كما ارتكز سياق تلقِّي هذا الخطاب على الاتّجاهين العقليّ والوجدانيّ، واللّذين يفضيان إلى التّسليم والاستجابة لداعي النّقد والتّمحيص.

قال الحقّ تبارك اسمه: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (27) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (28) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (29) وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (30) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (31) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (32) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ (النّازعات: 27-33). لقد وردت جملة هذه الآيات في سياق إعادة تشكيل الوعي بقضيّة البعث، ومواجهة الارتياب الشّديد حول إمكانيّة إعادة خلق الأجساد بعد البلى، مستهدفةً تحريك عقل المخاطَب الواقع تحت تأثير الفكر المادّيّ الذي لم يتجاوز ظاهر القضيّة. قال الله تعالى حكايةً عن منكريّ البعث: ﴿يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ(10) أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً﴾ (النّازعات: 10، 11).

إنّ السّؤالين المحكيّين عن القوم هنا إنكاريّان، والشّبهة ناشئةٌ فيهما من ارتباطها بحالة تحوّل الجسم البشريّ إلى عظام يستحيل إحياؤها وبعثها خلقاً جديداً في نظرهم،

ممّا أوجد في عقولهم تصادماً فضيعاً بين مظهر الفناء ومظهر تركيب خلقٍ جديدٍ يماثل الخلق الأوّل.

فورد الخطاب الإلهيّ مقترناً بسؤال الشّبهة من حيث التّبكيت[11]، مفارقا له من حيث زيادة مسحة التّعجيب والتّوبيخ من منشئه، تمهيدا لحسم دليل البعث من النّاحيتين العقليّة والوجدانيّة باستعمال المدخل ذاته، وهو التّكوين المادّيّ للخلق، ولكن بدلالة المفاضلة. يقول الحقّ جلّ شأنه: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ﴾ (النّازعات: 27)[12]. ولقد أفضى سؤال الله عزّ وجلّ هنا إلى حالةٍ من الحصار الفكريّ والوجدانيّ للمخاطَب، بين دلالتيّ المدخل الكونيّ والمدخل الإنسانيّ؛ حيث إنّ هذا الملكوت على عظمته واتّساعه مقهورٌ بقدرة الله تعالى، وكذلك حال العظام، لا يعظُمُ على الله بعثها خلقاً جديداً، بل هو أهون عليه.

إنّ مجيء الخطاب الإقناعيّ بين سياقين متآزرين هما سياق الورود وسياق التّلقّي، أوجد حصاراً مطبقاً على المخاطَب من جهة شبهة إنكاره للبعث ومن جهة نفسيّته، وهذا بفضل مسار التّبكيت وشحنة التّعجيب والتّوبيخ في خطاب الله تعالى له عن طريق السّؤال: ﴿أَأَنْتُمْ﴾؟ وبفضل شحنة التّرهيب الواردة قبل شبهة الإنكار في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (6) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ (7) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (8) أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ﴾ (النّازعات: 6- 9)، وكذا الواردة بعدها في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (13) فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ (النّازعات: 13، 14). فكان المقصود من إيراد شبهة إنكار البعث بين هذين السّياقين التّرهيبيين إحالةُ المخاطَب إلى لازمهما، وهو تدبّر دليل البعث الذي سيرد في سياق لاحق، فحصل بمجموع هذه السِّياقات إثبات وقوع البعث والتّحذير منه ومن مغبّة إنكاره[13].

2.2 الخطاب القصصيّ:

تعتبر قصّة سيّدنا موسى عليه السلام وفرعون من أكثر القصص ورودا في القرآن الكريم، عبر مقاطع متنوّعة وأساليب شتىّ، يتناسب كلٌّ منها مع النّاظم الشّموليّ للخطاب في السّورة التي ترد فيها، وتنسجم مع السّياق الخاصّ الذي ترد داخله، وتتناغم مع إيقاعات السّورة وفواصلها، بحيث تتماسك مشاهدها مع سياق ورودها، لتحقيق المقاصد المتوخّاة من الخطاب الإلهيّ[14].

هذا وتسجّل المحاورات المؤسّسة لمسلك بناء عقيدة التّوحيد وترسيخ اليقين بها في قصّة سيّدنا موسى عليه السلام حضوراً متميّزاً في السّور المكّيّة، وتعتبر من أعتى المحاورات العقديّة في القرآن الكريم، بالنّظر إلى المضامين التي عالجتها، والمنهج الذي أسّست عليه، وكذا المخاطَبين الذين توجّه إليهم موسى عليه السلام بالخطاب.

لقد امتزج الخطاب القصصيّ المسوق في سورة النّازعات بموضوعها امتزاجاً عضويًّا قويًّا، بحيث لا يمكن فصلهما، وجاءت النّواة الوظيفيّة لقصّة سيّدنا موسى عليه السلام وفرعون في مقطعها الوارد في السّورة متّفقة تمام الاتفاق مع قضيّة السّورة ومقاصدها؛ حيث إنّ مشهد القصّة يصوِّر الصّراع العقديّ بين الاستسلام المفضي إلى التّوحيد والطّغيان المفضي إلى الجحود... إنّه صراعٌ بين مسلكين: مسلك تثبيت وحدانيّة الله تعالى وألوهيّته في النّفس، وإشباعها بمعاني قدرته وعظيم سلطانه، في مقابل مسلك إنكار المخلوقيّة لله والصّدّ عنه. قال الله تعالى: ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (17) فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى (18) وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى (19) فَأَرَاهُ الآيَةَ الْكُبْرَى (20) فَكَذَّبَ وَعَصَى (21) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى (22) فَحَشَرَ فَنَادَى (23) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى (24) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى﴾ (النّازعات: 17- 25).

ولقد اجتمعت مآلات هذا المقطع القصصيّ مع غايات السّورة من خلال ظلال قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾ (النّازعات: 26)؛ ذلك أنّ مسلك الاعتبار بقصص السّابقين هو الأفق المقاصديّ الجليل الذي يتأسّس عليه الخطاب القصصيّ في القرآن الكريم. وعليه فذكر القصّة في هذا الموضع من السّورة «تعريضٌ بالمشركِين بأنّهُم ليسوا بأهلٍ للانتفاعِ بمثلِ هَذَا، كما لم ينتفعْ بمثلِهِ فرعون وقومُهُ. وفي القصَّةِ كلِّها تعريضٌ بسادةِ قريشٍ من أهلِ الكفرِ مثل أبي جهلٍ بتنظيرِهِ بفرعون، وتنظير الدَّهماءِ بالقومِ الذين حَشَرهم فرعونُ ونَادَى فِيهِم بالكفرِ... وتأكيدُ الخبرِ بـ(إنَّ) ولام الابتداءِ لتنزيلِ السَّامِعِين الذِين سِيقَت لهم القصَّةُ منزلةَ من ينكِرُ ما فيها من المواعِظِ، لعدمِ جريِهم على الاعتبارِ والاتِّعاظِ بما فيها من المَوَاعِظ»[15].

وجاء تركيز النّواة الوظيفيّة للمقطع القصصيّ على مظاهر الطّغيان التي تميّز بها سلوك فرعون تجاه دعوة الحقّ، وفي هذا استكمالٌ للوظيفة التي نيطت بتركيز قضيّة السّورة على تثبيت دعائم حجّة عقيدة البعث يوم القيامة، في مواجهة طغيان المنكرين

الذين اعتبروا فكرة إعادة إحياء الأجساد بعد بلاها كرّةً خاسرةً، وهو قمّة طغيانهم وصلف أفئدتهم.

ولذلك تقدّم القول في تحرير محلّ الاعتبار بالقصّة في السّورة بإبراز مآلات الطّغيان وأثره في الجزاء يوم القيامة، قبل القول بمآلات التّقوى وأثرها في الجزاء. قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى (37) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (38) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (39) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ (النّازعات: 37-41). فناسب هنا الاهتمام بمسلك الطّغيان بتقديم مآله، زيادةً في الاهتمام بحال المخاطَب، فالمقام في السّورة مقام خطاب للمنكرين الصّادّين عن مسلك الهداية.

وبهذا فقد شكّلت نواة القصّة جزءا لا يتجزأ من النّسيج العامّ للسّورة، ونتج عن امتزاجها بالقضيّة المحوريّة للخطاب تماسكٌ عضويٌّ وموضوعيٌّ فريدٌ، زاد من إيضاح معاني الخطاب في السّورة وتعميق مقاصده وبلاغات رسالته في فكر المخاطَب ووجدانه.

ومن خلال هاتين الوقفتين التّدبّريّتين مع مساريّ البنية الخطابيّة في سورة النّازعات، يتّضح جليّا أنّ الخطاب الإلهيّ فيها -كما في سائر السّور- قد خصّ المخاطَب «بعنايةٍ بعيدةٍ عن روح الاستدراجِ واغتصابِ القناعَةِ... لقد واجهت الآياتُ روحَ المتلقِّي وعقلَهُ وضميرَهُ، وخاطَبَته من نقطةٍ قريبةٍ من مداركِهِ، وحَمَلتهُ إلى عقيدتِهَا التَّوحيديَّةِ بتوظيفِ المقولِ الفكريِّ والشُّعوريِّ الذي لاَ يُمكِنُ للعقلِ أن يغمزَ في جوهريَّتِهِ؛ فالدَّعوةُ القرآنيَّةُ لا تُخاتِلُ في تقديمِ حُجَّتِها، ولا تُمارِي في بسطِهَا، ولكنَّها توظِّفُ الحوارَ الفكريَّ في الرِّهانِ على منطقيَّتِها، وتؤصِّل مقولَتَها بأسبابِ الإقنَاعِ»[16]، ما يجعل رسالة الخطاب بعيدة كلّ البعد عن القهر الفكريّ والإكراه النّفسيّ.

3. تماسك البنية اللّغويّة للخطاب الإلهيّ في سورة النّازعات:

تظهر براعة العرض القرآنيّ وتماسكه في سورة النّازعات من خلال انتقاء أنماط أساليب الخطاب وتراكيبه وصيغه، والانتقال بينها انتقالاً حيويًّا يضيف إلى الوحدات النّصيّة للسّورة مستوى من العمق والتّماسك لا يضاهى، ويزيد من تنشيط ذهن المخاطَب وتعزيز ارتباطه بمقصد الاعتبار المنوط بالقضيّة العقديّة موضوع الخطاب. ويظهر تماسك البنية اللّغويّة في السّورة من خلال المحاور الآتية:

3.1 التّماسك على مستوى الأساليب:

انتقل الخطاب الإلهيّ في سياق معالجة موضوع السّورة، والمرتبط بترسيخ دلائل التّوحيد وإثبات البعث والمعاد، من بنية أسلوبيّة إلى أخرى انتقالاً معجزاً، كان له أثره الجليّ في تماسك السّياقات والوحدات النّصيّة المشكِّلة لبنيتها؛ ومن ذلك انتقال مطلع السّورة بين الأساليب، بدءا من الأسلوب الإنشائيّ غير الطّلبيّ، ألا وهو القَسَم، في قول الله تعالى: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا (1) وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا (2) وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴾ (النّازعات: 1-3)، إلى الأسلوب الخبريّ في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (6) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ (7) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (8) أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ﴾ (النّازعات: 6- 9). وأنشأ هذا الانتقال إيقاعاً سريعاً بين فواصل السّورة، له دلالتُهُ التي تتناسب مع عظمة هيئة الملائكة الكرام، وتنسجم مع الأدوار المنوطة بهم، وتتناغم مع أحداث يوم القيامة التي تهتزّ لهولها القلوب وترتجف من تتابع وقوعها.

ثمّ انتقل الخطاب من أسلوب الاستفهام إلى أسلوب الأمر، ثمّ عاد إلى الاستفهام مرّة أخرى في نسقٍ موحٍ للغاية: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (15) إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (16) اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (17) فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى﴾ (النّازعات: 15-18)، وهو انتقالٌ له دلالتُهُ؛ فقد ورد عقب الحديث عن أهوال الحشر يوم القيامة: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (13) فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ (النّازعات: 13، 14)، فبدأت الآية الموالية بالاستفهام، زيادةً في جذب السّامع وشدِّ انتباهِهِ بعد حالة الفزع التي اعترته من المشاهد المهولة قبلاً، وتمهيداً لنقله بسلاسةٍ لتلقّي بصائر المقطع القصصيّ[(17)].

وفي الموضع نفسه انتقل السّرد القصصيّ من أسلوب الخطاب في الحكاية: ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى (18) وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾ (النّازعات: 18، 19)، إلى أسلوب الغيبة: ﴿فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى (20) فَكَذَّبَ وَعَصَى (21) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى (22) فَحَشَرَ فَنَادَى (23) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ (النّازعات: 20-25). وهذا التّنوّع في أساليب الحكاية يجعل المشاهد القصصيّة حيويّةً وجاذبةً، ويزيد من ارتباط المخاطَب برسالتها، ويرفع من تأثيرها عليه، من خلال شحنة العواطف التي يستثيرها وقع المعاني البلاغيّة في وجدانه وعقله، وهو المقصد الأساسيّ من سوق القصّة في قلب السّورة: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾ (النّازعات: 26).

كما ورد الخطاب التّساؤليّ فيها معضّداً بالأسلوب الخبريّ ومعضِّداً له في المدخل الكونيّ للسّورة، في قول الله تعالى: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (27) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (28) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (29) وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (30) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (31) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (32) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ (النّازعات: 27-33).

فالاستفهام الوارد في قوله تعالى: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ﴾ غير منفصلٍ عن السّياق الخبريّ الذي تلاه، والذي جاء بمثابة الاستدلال على ما ورد في الاستفهام من المقارنة دحضاً لشبهة إنكار البعث. ولهذا التّعاضد بين سياقيّ الاستفهام والخبر أثرٌ في تنشيط الذّهن وتعزيز تماسك مسار الاعتبار بالدّليل، من خلال محاصرة المخاطَب بين سياق النّقد الذي يتضمّنه الأسلوب الاستفهاميّ، وسياق التّقرير الذي يفيده الأسلوب الخبريّ، فلا مناصّ من تحصيل الدّلالة بعدئذٍ، وهذا غاية التّأسيس السّليم لقضيّة البعث في العقل والوجدان.

وفي هذا السّياق يظهر تماسك البنية اللّغويّة للخطاب في السّورة بدلالة أسلوب الاستفهام، من خلال توظيف ألفاظ الاستفهام في تراكيب مقاطع السّورة، وفق نظامٍ يتناسب مع أحوال هذه الألفاظ من حيث سعة استعمالها وضيقه، ومن حيث دلالتها على المعنى المقصود من أقرب طريق. فمكمن قوّة أسلوب الاستفهام في «أنَّ أداةَ الاستفهامِ تُحدِثُ في التَّركيبِ ما يشبه التَّيَّار الكهربيَّ، تزيدُهُ الكلماتُ والحروفُ وتكرارُ الاستفهامِ أحياناً توهُّجاً وتأجُّجاً، حتَّى يصلَ إلى مدًى يُناسبُ الموقفَ وحالَ المخاطَبِ، والنَّسقَ الخاصَّ والسِّياقَ العَامَّ»[(18)].

ولقد وردت أساليب الاستفهام في أربعة مواضع في السّورة على نحوٍ متتالٍ، في قول الله تعالى: ﴿يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ (10) أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً﴾ (النّازعات: 10، 11)، وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (42) فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا﴾ (النّازعات: 42، 43)، وفي ثلاثة مواضع أخرى على نحوٍ منفصلٍ، في قول الله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ (النّازعات: 15)، وقوله تعالى: ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى﴾ (النّازعات: 18)، وقوله تعالى: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ﴾ (النّازعات: 27).

ففي قول الله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ (النّازعات: 15) ورد الاستفهام بهدف تشويق السّامع، من غير قصدٍ إلى طلب الاستعلام عن سبق علمه بخبر موسى عليه السلام مع فرعون، فـ(هل) موضوعةٌ لطلب التّصديق[19]، فناسب بعدها أن تساق القصّة مباشرة مصداقاً لدلالة أداة الاستفهام. بينما جاءت همزة الاستفهام في قول الله تعالى: ﴿يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ (10) أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً﴾ (النّازعات: 10، 11) مشحونةً بمعاني التّعجّب والإنكار لوقوع البعث، فناسب ذلك ورُودُها من جهة الحقّ تبارك اسمه مشحونةً بمعاني التّبكيت والتّعجيب من حال المنكرين ومقالهم: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ﴾ (النّازعات: 27)، وأُدخِلت عليها (أَمْ) لتصعيد معنى التّبكيت وإثارة الانفعال الوجدانيّ لدى المخاطَب على نحوٍ متجدّدٍ، لزيادة الضّغط عليه ودفعه إلى تحصيل دلالة خطاب الاستفهام.

وهكذا فقد تحقّق للسّورة بفضل براعة الانتقال بين الأساليب والتّناسب بينها، تناغُمٌ فريدٌ بين الخطاب ومختلف الأبنية الأسلوبيّة، نتج عنه سياقاتٌ إقناعيّةٌ محكمة السّبك، متفرّدة الدّلالة، ممزوجةٌ ببعدٍ جماليٍّ فنّيٍّ. وعند حدود هذا التّناغم والسّبك والجمال تماسكت البنية اللّغوية للخطاب مع البنية النّفسيّة للمخاطَب، بغية تثبيت مقاصد القضيّة المحوريّة للسّورة في وعيه، وتحقيق بلاغات الرّسالة الإلهيّة في فؤاده.

3.2 التّماسك على مستوى التّراكيب والصّيغ:

احتفلت سورة النّازعات بأنواع الجمل والصّيغ احتفالاً بديعاً، يتناسب مع قضيّتها ومقاصدها وسياقات الخطاب فيها وكذا إيقاعات أساليبها، حيث اشتملت على سبعة عشر جملة اسميّة وعلى ثلاث وأربعين جملة فعليّة. ولهذا الاحتفال قيمته البيانيّة وأثره في السّورة، وهذا بالنّظر إلى دور الأسماء في الدّلالة على معاني الثّبات، ودور الأفعال في الدّلالة على معاني الحركة والتّجدّد.

لقد تنوّعت الجمل الاسميّة في السّورة ما بين المنسوخة وغير المنسوخة، من مثل قول الله تعالى: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (8) أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ﴾ (النّازعات: 8، 9)، وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (13) فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ (النّازعات: 13، 14)، وقوله: ﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ (النّازعات: 39)، وقوله أيضا: ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ (النّازعات: 41). وهذا الثّراء في استعمال الجمل الاسميّة يعطي دلالةً قويّةً على دورها في

ترسيخ الحجج وتعزيز بنية الوصف عند سوق الحقائق المرتبطة بيوم القيامة، وهي الحقائق التي تتّسم بكونها ثابتةً ومثبتةً. كما أنّها مناسِبةٌ لنقل مشاعر القلق وتصوير ملامح الخوف في هذا اليوم العظيم، فلا أليق لهذين المشهدين من تركيبة الجملة الاسميّة[20].

والملاحظ في السّورة كذلك قلّة ورود المبتدأ في الجمل الاسميّة معرّفاً بـ(ال) أو خالياً من الضّمائر الرّابطة، فورد اسما معرّفا بضمير متّصل، من مثل قول الله تعالى: ﴿أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ﴾ (النّازعات: 9)، وقوله سبحانه: ﴿إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا﴾ (النّازعات: 44)، أو ضميرا في مثل قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (13) فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ (النّازعات: 13، 14). وفي هذه التّركيبة ما فيها من الإشعار بترابط أجزاء السّورة واتّصالها من جهة المبنى ومن جهة المعنى معاً، وهذا ما يمنح الوحدات النّصّيّة للسّورة وحدةً عضويّةً غير خافية[21].

ومن جهة أخرى فقد وردت الجمل الفعليّة في السّورة حاملةً لدلالةٍ زمنيّةٍ متجدِّدة، بالإضافة إلى دلالتها على الأحداث. وقد أثرى تنوّع سياقات ورودها وصيغ الأفعال فيها هذه الدّلالة الزّمنيّة أيّما إثراء؛ ذلك أنّ «السِّياقَ يحملُ من القرائِنِ اللَّفظيَّةِ والمعنويَّةِ والحاليَّةِ ما يُعينُ على فهمِ الزَّمنِ في مجالٍ أوسعَ من مجرَّدِ المجالِ الصَّرفِيِّ المحدودِ. وهَكَذَا يكونُ نظامُ الزَّمنِ جزءاً من النِّظامِ الصَّرفِيِّ، وأمَّا الزَّمنُ السِّياقِيُّ النَّحويُّ فإنَّهُ جزءٌ من الظَّواهِرِ الموقعيَّةِ السِّياقيَّةِ، لأنَّ دلالةَ الفعلِ على زمنٍ ما تتوقَّفُ على موقِعِهِ وعلى قرينَتِهِ في السِّيَاقِ...»[22].

فمن ذلك قول الحقّ تبارك وتعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (6) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ (النّازعات: 6، 7)؛ فمناسبة استعمال الفعل ﴿تَرْجُفُ﴾ مع دلالة الوصف ﴿الرَّاجِفَةُ﴾ بصيغة اسم الفاعل جليلةٌ، حيث يدلّ كلاهما على الحركة والاستمرار والتّجدّد، وقد عضّدهما في هذه الدّلالة ورود الفعل ﴿تَتْبَعُهَا﴾، إمعاناً في تخويف منكريّ البعث وزجرهم، قبل سوق كلامهم الشّنيع في إنكار إعادة خلق الأجساد بعد بلاها. فناسب هذا المقام وضع المخاطَبين وجدانيًا بين دلالة التّخويف المتجدِّدة زمنيًا عن طريق الجملة الفعليّة، ودلالة الزّجر المتحقِّقة عن طريق الجملة الاسميّة.

ومن ذلك تتابع استعمال الفعل في الماضي في قول الله تعالى: ﴿فَأَرَاهُ الآيَةَ الْكُبْرَى (20) فَكَذَّبَ وَعَصَى (21) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى (22) فَحَشَرَ فَنَادَى (23) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾ (النّازعات: 20- 24) في مقاطع قصيرةٍ، للدّلالة على مضيّ فرعون في غيِّهِ دونما خشيةٍ من مآلات تكذيبه. وجيء في قلب هذا السّياق بالفعل المضارع ﴿يَسْعَى﴾، للدّلالة على تحوّل منحى التّكذيب نحو مزيدٍ من الطّغيان، فكان ادِّعاء الرّبوبيّة ذروة النّكوص عن جادّة الهداية وتولية الدّبر لمسلك الخشية. وهذا التّنوّع في إيقاعات الصّيغ يزيد من جذب المخاطَب ناحية القصّة، ويمنحها تجدُّداً في السّرد مغايراً لمنحى ورودها في مواضع أخرى في القرآن، وهذا هو جوهر تحقّق رسالة القصّة في كتاب الله المجيد.

ومن ذلك مجيء الفعل (خَشِيَ) في صيغة المضارع في كلِّ المقاطع التي ورد فيها، في قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾ (النّازعات: 19)، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾ (النّازعات: 26)، وقوله أيضا: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا﴾ (النّازعات: 45). وفي هذا الثّبات على صيغةٍ واحدةٍ دلالةٌ جليّةٌ على ملازمة وصف الخشية لدعوة الحقِّ وعداً ووعيداً، وعلى كونها المقصد المتجدِّد لرسالة الحقِّ تبارك وتعالى للنّاس على اختلاف أزمنتهم وأمكنتهم.

وهكذا تظهر هذه النّماذج التّحليليّة أهمّيّة التّماسك في البنية اللّغويّة للخطاب الإلهيّ في سورة النّازعات على مستوى تنوّع الأساليب والتّراكيب والألفاظ؛ فقد ورد الخطاب الإلهيّ مدعوماً بهذا التّنوّع لكي «يعبِّر بالصُّورةِ المحسَّةِ المتخيَّلةِ عن المعنَى الذِّهنيِّ والحالةِ النَّفسيَّةِ، وعن الحادِثِ المحسوسِ والمشهدِ المنظُورِ، وعن النَّموذجِ الإنسانيِّ والطَّبيعةِ البشريَّةِ. ثمّ يرتقِي بالصُّورةِ التِي يرسُمُهَا، فيمنحُهَا الحياةَ الشَّاخصَةَ أو الحركة المتجدِّدةَ. فإذا المعنَى الذِّهنيُّ هيئةٌ أو حركةٌ، وإذا الحالَةُ النَّفسيَّةُ لوحةٌ أو مشهدٌ، وإذا النَّموذجُ البشريُّ شاخصٌ حيٌّ، وإذا الطَّبيعةُ البشريَّةُ مجسَّمةٌ مرئيَّةٌ. وأمَّا الحوادثُ والمشاهدُ والقصصُ والمناظرُ فيردُّهَا شاخصةً حاضِرةً، فِيهَا الحياةُ وفِيهَا الحرَكَة...»[23].

خاتمة:

ومن خلال هذه الوقفات التّدبّريّة في نظم سورة النّازعات، عبر مختلف تمثّلات خاصّيّة التّماسك البنيويّ فيها، تظهر جوانب مهمّةٌ من هذه الخاصّيّة، لها أثرٌ عظيمٌ في

الكشف عن مكنونات الخطاب الإلهيّ، وعن بصائر النّاظم الشّموليّ الذي تحقَّقَ للسّورة في ظلِّهِ انسجام المعنى واتِّساق المبنى، من خلال توليفةٍ بنائيّةٍ فريدةٍ، اجتمعت فيها كلّ الفضائل، وكانت محلّ اكتمال نظم الخطاب وموضع إبراز جماليّته.

لقد أظهر التّحليل القوّة السِّياقيّة والتّرابط الدّلاليّ والمعنويّ النّاشئ عن تمحور الوحدات النّصّيّة للسّورة حول قضيّتيّ التّوحيد والبعث، من حيث إنّهما شكّلتا جوهر التّماسك النّصّيّ في الخطاب على مستوى نظم السّورة وعلى مستوى سياقها العامّ. كما بدا واضحا ذلك التّلاحم بين المدخل الكونيّ للخطاب الإلهيّ ومدخله الإنسانيّ من ناحية سياق وروده، وبين الاتِّجاه العقليّ لهذا الخطاب واتّجاهه الوجدانيّ من ناحية سياق تلقّيه، وبدت جليّةً القيمةُ الفنّيّة والجماليّة والمعنويّة لتماسك مختلف الظّواهر التّركيبيّة للبنية اللّغويّة للخطاب.

ولقد كان التّلاحم بين مختلف البنى المعرفيّة المشكِّلة للخطاب الإلهيّ في السّورة كفيلاً بتحقيق التّماسك الدّاخليّ لبنيته الكلّيّة، والحيولة دون تشتّت مبانيه ودلالاته، وتهيئة الفرصة له لبلوغ أقصى درجات التّأثير على المخاطَب، وذلك باستصحاب ضابط النّاظم الشّموليّ للخطاب الإلهيّ، والمتمثّل في أنَّ هذه البنى «كما لاَ يطغَى بعضُهَا على بعضٍ في المضمونِ القرآنيِّ والفلسفةِ القرآنيَّةِ، كذلك لاَ يطغَى بعضُهَا على بعضٍ في منهجِ العرضِ القرآنيِّ لمقوّماتِ هذه الفلسفةِ وللحقائقِ التي تقومُ عليها تلكَ المضامينُ. أي إنَّ التَّوازنَ هو طابعُ المضامينِ والأسلوبِ جميعاً، بحيثُ تبدُو كلُّهَا واضحةً في المشهدِ الفريدِ الذِي يُرسَمُ للكلِّ في السِّياقِ القرآنيِّ الواحِدِ»(24).

ولا شكّ أنّ تدبّر الخطاب القرآنيّ ضمن هذا الضّابط المنهجيّ يمثِّل خطوة حاسمة في تشكيل الوعي الحقيقيّ بهذا الخطاب وبمقاصده ورسالته، في ظلِّ خصوصيّة نسقه المعرفيّ وسياق نظمه؛ ذلك أنّنا أمام خطابٍ متفرِّدٍ، تشكِّل عناصر بنيته وحدة منسجمة غير قابلة للتّجزيئ، وإنّ القراءة التّدبّريّة الواعية له تتطلّب تحليله ضمن النّاظم الشّموليّ لنسقه المعرفيّ، وضمن رؤية شموليّة من شأنها أن تنتج فهما راشدا له، وتتيح فرصة ثمينة لتمثّل دلالات رسالته في الواقع. وإنّ أيّ قراءة تحليليّة تستنكف عن هذا الضّابط، ستأخذ شكلا من أشكال الاعتداء الفكريّ على الخطاب الإلهيّ، لأنّها ستسلخه عن سياقه، وستتسبّب في تشتيت دلالاته وتضييع حقائقه.

وفي ظلِّ هذه النّتائج فإنّه يمكن القول: إنّ تشكُّلَ دلالة إيمانيّة كونيّة متجدِّدة لرسالة الحقّ تبارك وتعالى للأمّة رهنٌ بقاعدةٍ كلّيةٍ مفادها: أَنْ لا تحقُّق للوعي بهذه الرّسالة من جديد إلاّ في ظلِّ العودة إلى تدبّر مسارات تشكّل الخطاب الإلهيّ الحامل لها، وفي ظلِّ ضوابط النّاظم الشّموليّ التي ارتكزت عليها بنيته المعرفيّة، والتي تجد جذورها في الكينونة الإنسانية، وتستوعب حركيّة الوجود برمّته، وتتناغم مع عالميّة هذا الخطاب.

الهوامش:

1- النّاظم الشّموليّ: هو النّسق المتكامل لمنهج تدبّر الخطاب الإلهيّ على مستوى بنيته النّصّيّة والخطابيّة وكذا اللّغويّة التّركيبيّة، ثمّ الوقوف على انعكاس تأثير هذه البنى مجتمعةً على نفسيّة المخاطَب وعلى سلوكه، وهو مصداق تحقّق بلاغات رسالة هذا الخطاب.

2- انظر: بدر الدّين الزّركشيّ: البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة التّراث، القاهرة، مصر، دت، ج 1/ ص 193، ومجد الدّين الفيروزابادي: بصائر ذوي التّمييز في لطائف الكتاب العزيز، تحقيق: عبد العليم الطّحاوي، لجنة إحياء التّراث الإسلاميّ بالمجلس الأعلى للشّؤون الإسلاميّة، القاهرة، مصر، 1393 هـ- 1973 م، ج 1/ ص 499.

3- انظر: جلال الدّين السّيوطيّ: أسرار ترتيب القرآن، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، القاهرة، مصر، ط 2: 1398 هـ- 1978 م، مقدّمة التّحقيق، ص 9 وما بعدها، ففيها كلام نفيس للغاية.

4- انظر: فخر الدّين الرّازيّ: التّفسير الكبير، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط 1: 1401 هـ- 1981 م، ج 31/ ص 28 وما بعدها، وأبو حيان الأندلسيّ: البحر المحيط، دراسة وتحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط 1: 1413 هـ- 1993 م، ج 8/ ص 411 وما بعدها.

5- جاء في لسان العرب: "طمَّ الماءُ يَطِمُّ طمًّا وطُمُومًا: عَلاَ وغَمَرَ، وكلُّ ما كثُرَ وعلاَ حتىَّ غلبَ فقد طَمَّ يَطِمُّ... وأصلُهُ من طمَّ الشّيءُ إذا عَظُمَ، والطَّامّةُ الدَّاهيةُ العظيمةُ تغلبُ ما سِوَاهَا". انظر: ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، دت، ج 12/ ص 370، مادة طَمَمَ.

6- انظر: ابن الزّبير الثّقفيّ: البرهان في تناسب سور القرآن، تحقيق: سعيد جمعة الفلاّح، دار ابن الجوزيّ، الرّياض، المملكة العربيّة السّعوديّة، ط 1: 1428 هـ، ص 201.

7- انظر: أبو الحسن البقاعيّ: نظم الدّرر في تناسب الآي والسّور، تصحيح وتعليق وتنقيح: مجموعة من العلماء، دائرة المعارف العثمانيّة، حيدر أباد، الهند، ابتداء من سنة 1389 هـ- 1969 م، ج 21/ ص 217، وجلال الدّين السّيوطيّ: أسرار ترتيب القرآن، ص 146.

8- انظر: محمّد عضيمة: دراسات لأسلوب القرآن الكريم، دار الحديث، القاهرة، مصر، دت، ج 3/ ص 492.

9- انظر: أبو الحسن البقاعيّ: نظم الدّرر، ج 21/ ص 249، وانظر في أسباب نزول سورة عبس: الواحديّ النّيسابوريّ: أسباب نزول القرآن، تحقيق ودراسة: كمال بسيوني زغلول، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط 1: 1411 هـ- 1991 م، ص 471، 472.

10- انظر: أبو حيان الأندلسيّ: البحر المحيط، ج 8/ ص 421. وجاء في لسان العرب: «الصّخّ الضّربُ بالحديدِ على الحديدِ، والعصا الصّلبة على شيءٍ مُصمَتٍ... والصّاخّةُ القيامةُ، وهي الصَّيحةُ التي تكونُ فيها القيامةُ تَصِخُّ الأسماع أي تُصِمُّها فلا تسمعُ إلاَّ ما تُدعَى به للإحياءِ». انظر: ابن منظور: لسان العرب، ج 3/ ص 33، مادّة صَخَخَ، والرّاغب الأصفهانيّ: المفردات في غريب القرآن، تحقيق: محمّد سيّد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، لبنان، دت، ص 275.

11- أصل التّبكيت من الفعل (بَكَتَ). قال الزّمخشريّ: «بَكَتَهُ بالحُجَّة وبَكَّتَهُ: غَلَبَهُ. تقول: بَكَّتَهُ حتى أسكتَهُ. وبَكَّتَهُ: قَرَعَهُ على الأمرِ وألزمَهُ ما عَيَّ بالجوابِ عنه». انظر: جار الله الزّمخشريّ: أساس البلاغة، تحقيق: محمّد باسل عيون السّود، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط 1: 1419 هـ- 1998 م، ص 72.

12- انظر: محمود الآلوسيّ: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسّبع المثاني، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، لبنان، دت، ج 30/ ص 31، ومحمّد عضيمة: دراسات لأسلوب القرآن الكريم، ج 1/ ص 396.

13- انظر: محمّد الطّاهر بن عاشور: التّحرير والتّنوير، الدّار التّونسيّة للنّشر، تونس العاصمة، تونس، 1984 م، ج 30/ ص 65، 66.

14- انظر: سيّد قطب: التّصوير الفنّيّ في القرآن، دار الشّروق، القاهرة، مصر، ط 17: 1425 هـ- 2004 م، ص 143 وما بعدها.

15- محمّد الطّاهر بن عاشور: التّحرير والتّنوير، ج 30/ ص 82، 83.

16- سليمان عشراتي: الخطاب القرآنيّ: مقارنة توصيفيّة لجماليّة السّرد الإعجازيّ، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر العاصمة، الجزائر، 1998 م، ص 6.

17- انظر: محمّد الطّاهر بن عاشور: التّحرير والتّنوير، ج 30/ ص 73، 74.

18- صباح عبيد درّاز: الأساليب الإنشائيّة وأسرارها البلاغيّة في القرآن الكريم، مطبعة الأمانة، شبرا، مصر، ط 1: 1406 هـ- 1986 م، ص 126.

19- انظر: أبو يعقوب السّكاكيّ: مفتاح العلوم، تحقيق: نعيم زرزور، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط 2: 1407هـ- 1987م، ص 308، 309، ومحمّد عضيمة: دراسات لأسلوب القرآن الكريم، ج 3/ ص 480.

20- انظر: محمّد محمّد أبو موسى: دلالة التّراكيب- دراسة بلاغيّة، مكتبة وهبة، القاهرة، مصر، ط 2: 1408 هـ- 1987 م، ص 351 وما بعدها.

21- انظر: محمّد عضيمة: دراسات لأسلوب القرآن الكريم، ج 8/ ص 21 وما بعدها.

22- حسن تمّام: اللّغة العربيّة مبناها ومعناها، دار الثّقافة، الدّار البيضاء، المغرب، 1994 م، ص 105.

23- سيّد قطب: التّصوير الفنّيّ في القرآن، ص 36.

24- عدنان محمّد زرزور: علوم القرآن- مدخل إلى تفسير القرآن وبيان إعجازه، المكتب الإسلاميّ، بيروت، لبنان، ط 1: 1401 هـ- 1981 م، ص 302.